تحديات التغيير الحضاري من منظور التنمية البشرية

أ. بوفارس عبد الرحمان
أستاذ مؤقت كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية
الجامعة الإفريقية أحمد دراية أدرار

ملخص المداخلــة:

تتناول هذه المداخلة تحديات التغيير الحضاري من وجهة نظر التنمية البشرية، وذلك من خلال عرض وجيز لمفهومها ومؤشرات قياسها، ودور الإنسان الفعال في عملية التغيير. وباعتبار أن التنمية البشرية تعنى بالرفاه الإنساني، وأن الإنسان هو العنصر الأساسي والمحرك الفعال لعملية التغيير .

من خلال هذه المقاربة سنحاول عرض التحديات التي تعترض التغيير الحضاري والدور الذي تلعبه التنمية البشرية بمفهومها الحديث في مواجهة تحديات وعوائق وصعوبات التغيير

مقدمــة:

لاشك أن التحديات والكبرى الذي تواجه التغيير الحضاري في هذا العصر، هو تجاوز الهوة الكبيرة والمتعاظمة بينها وبين البلدان المتقدمة. ولن تقوى الأمة على تجاوز هذه الهوة إلا عن طريق مشروع تنموي شامل مؤيد برؤية متبصرة لأهداف ومرامي وغايات هذه التغيير الحضاري المنشودة. ذلك أن التنمية تقتضي توافر استراتيجية ثقافية شاملة، تتظافر في صنعها أبعاد متعددة، وتتراكب فيها جوانب مختلفة لتصنع التنمية الشاملة.

لقد نال مفهوم التنمية البشرية اهتمام العديد من المفكرين والباحثين في جميع الميادين العلمية في الدول المتقدمة والنامية، لما فيه من القدرة على مواجهة التحديات التي تعترض تقدم المجتمعات وازدهارها، لذلك فقد سعت جميع الدول والمجتمعات إلى تبني هذا المفهوم من خلال استثمار كل امكانياتها لكي تستطيع الوصول إلى درجة متقدمة التنمية.

وما زال اهتمام الخبراء يتعاظم يوما لعد يوم بالإنسان وتنمية قدراته ومهاراته وتوفير الشروط الاقتصادية والاجتماعية اللازمة ليكون فعالا في عملية التغيير الحضاري والتقدم والرقي.

"لقد ظهرت الحاجة إلى فكر تنموي جديد يجعل الإنسان هو الهدف الأساسي لعملية التنمية، ومن ثم فإن تنمية القوى البشرية أصبحت ضرورة لرفع مستوى الأداء في شتى أوجه النشاط، وذلك لمواجهة التحديات المتعددة واللحاق يركب الدول المتقدمة".[1]

[1] – خديجة عبد الله يحمد، 2009.**أهمية المؤشرات الإحصائية في والتنمية البشرية**، الملتقى الإحصائي العربي الثاني، 2– 4 نوفمبر 2009، سرت، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، ص 56.

إن مفهوم التنمية نشأ وترعرع في أحضان التطور الذي عرفته البشرية على مختلف المستويات، وبرز مفهوم التنمية بشكل واضح عقب الحرب العالمية الثانية، حيث خرجت الدول محطمة بفعل الحرب، وظهور مجموعة من الدول سميت بدول العالم الثالث أو الدول المتخلفة التي تعاني من حلقات تخلف دائرية تتمثل في انخفاض المستوى الاقتصادي إلى ما دون الكفاف، وظهور الأمراض الوبائية، انطلاقا من هذا الوضع ظهرت مفاهيم متعددة منها: " أن التنمية هي التحريك العلمي المخطط لمجموعة من العمليات الاجتماعية والاقتصادية من خلال إيديولوجية معينة لتحقيق التغير المستهدف من أجل الانتقال بالمجتمع من حالة غير مرغوب فيها إلى حالة مرغوب الوصول إليها".[2] ويعرفها البعض على أنها: "التنمية هي عملية تغيير واع يحدث في المجتمع من خلال التوحد والمشاركة بين جهود المواطنين والحكومة بهدف الاستفادة من كافة الموارد المتاحة في المجتمع، وتحقيق الرفاهية الاجتماعية والاقتصادية، ويتم ذلك وفق خطة مرسومة".[3] كما أنها: "هي عملية تهدف إلى إحداث تغيير حضاري في طريقة التفكير والسلوك".[4] ونلاحظ أن هذا التعريف دقيق يتناسب مع مفهوم التغيير الحضاري لجعله للإنسان المحور الأساسي في عملية التنمية والتغيير بطريقته المتميزة في التفكير والسلوك.

1-تعريف التنمية البشرية

تعرف التنمية البشرية على أنها: "توسيع خيارات الناس وقدراتهم من خلال تكوين رأس المال الاجتماعي، بحيث تتم تلبية احتياجات الجيل الحالي بأكبر قدر ممكن من العدالة دون المساس باحتياجات الأجيال القادمة. ونلاحظ من هذا التعريف أن مفهوم التنمية البشرية يتضمن إتاحة خيارات متعددة وجعلها في متناول الأفراد من خلال توفير المناخ الملائم والمساعد على تحقيق أهداف الأفراد؛ كما يهتم هذا المفهوم من جهة أخرى بتشكيل القدرات البشرية من خلال تحسين مستويات المعرفة والصحة....الخ.كما تجدر الإشارة إلى أن محور التنمية البشرية يرتكز على الأبعاد التالية :

أ -تنمية القدرات البشرية عن طريق انتهاج أساليب التعلم والتدريب وزيادة القدرة على العمل والإنتاج عن طريق الرعاية الصحية.

ب - الانتفاع من القدرات البشرية عن طريق خلق فرص عمل منتجة بما يتناسب مع القدرات البشرية المكتسبة.

ج -تحقيق الرفاهية باعتبارها هدفا لمختلف الجهود الإنمائية".[5]

نلاحظ أن التنمية البشرية مفهوم مركب يشتمل على جملة من المعطيات والأوضاع والديناميات، وهو عبارة عن عملية تحدث نتيجة تفاعل مجموعة من العوامل والمدخلات المتعددة والتنموية من أجل الوصول إلى تحقيق تأثيرات

---

[2]- تومي حسين، جويلية، 2010، **الجامعة وتنمية المجتمع في الجزائر بين النجاح الكمي والإخفاق الكيفي**، دراسات اجتماعية، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلمية، العدد 05، الجزائر، ص 15.

[3]- حفظي إحسان، 2006، **علم اجتماع التنمية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ص 33.

[4]- رفيق بن مرسلي، 2011، **الاتجاهات الحديثة للتنمية الإدارية بين حتمية التغيير ومعوقات التطبيق، دراسة حالة الجزائر 2011/2001**، مذكرة ماجستير، (ملف pdf)، تحت إشراف سرير عبد الله رابح، جامعة مولود معمري تيزيوزو، الجزائر، ص 17.

[5]- الداوي الشيخ،2008، **تحليل أثر التدريب والتحفيز على تنمية الموارد البشرية في البلدان الإسلامية**، مجلة الباحث، العدد 06، ، جامعة الجزائر، الجزائر، ص09.

وتشكيلات معينة في حياة الإنسان، وفي سياقه الاجتماعي، وعرفها البعض بأنها" تنمية قدرات وخيارات الحياة أمام الناس في مجتمع معين بحيث تلتزم هذه العملية بطموحات الأفراد والمجتمع وأن تعي لضرورات الحاضر وتراث الماضي وتطلعات المستقبل.[6]

2- مؤشرات قياس التنمية البشرية:

تقاس التنمية البشرية في دولة ما بالمؤشرات التالية:[7]

- التعليم: ويقاس بمتوسط سنوات الدراسة، ومتوسط سنوات الدراسة المتوقع.
- الصحة: ويقاس بالعمر المتوقع عند الولادة.
- الدخل: نصيب الفرد من الدخل القومي الإجمالي.

تجدر الإشارة إلى هذه المؤشرات السابقة الذكر هي المؤشرات الأساسية والرئيسية التي تعتمد في تقارير التنمية البشرية منذ العام 1990، كما أن هناك مؤشرات ثانوية تندرج ضمن هذه المؤشرات الأساسية.

3- تحديات التغيير الحضاري من منظور التنمية البشرية:

إذا ما تطرقنا إلى التحديات التي توجه عملية التغيير الحضاري وفقا لمقاييس التنمية البشرية سوف نرصد أربع حالات: الأولى: عالم متقدم اقتصاديًا وبشريًا، والثانية: متقدم بشريًا ومتخلف اقتصاديًا، والثالث: متقدم بشريًا وفى سبيله للالتحاق بركب التقدم الاقتصادي، والأخيرة: متخلف اقتصاديًا وبشريًا. وإذا استثنينا الحالتين الثانية والثالثة نظرًا لاندراجهما تحت مقياس متقدم للتنمية البشرية فإنه يتبقى لدينا حالتان الأولى لعالم متقدم كمًّا وكيفًا، والثانية لعالم متخلف تنمية ونموًّا، فيما يتعلق بالعالم المتقدم الذي يمتلك مقاليد المعرفة والتكنولوجيا الحديثة، لا شك أنه سينفق كل غالٍ ونفيس من أجل الحفاظ على استمرار ريادته وتقدمه، سواء كان ذلك من خلال بذل المزيد من الجهد لتنمية شعوبه أو اللجوء لاستقطاب العقول البشرية من كل حدب وصوب إن لزم الأمر .ولعل ذلك سيكون منبعه يقين تلك البلدان بأن سر التقدم والرقى يكمن فيما تمتلكه من عقول قادرة على الإبداع والابتكار المستمر وسرعة الاستجابة للاحتياجات المتجددة التي تفرزها البيئة الدولية.

أما بالنسبة للعالم المتخلف أو النامي -كما يُطلق عليه تجاوزًا- فإن مسيرته نحو معدلات أفضل من التنمية البشرية في القرن القادم تعترضها العديد من التحديات التي تصل إلى درجة الأمراض المزمنة، وتتمثل أهمها فيما يلي:[8]

---

[6]- زياد بركات وأحمد عوض،2011، **واقع دور الجامعات العربية في تنمية مجتمع المعرفة من وجهة نظر عينة من أعضاء هيئة التدريس فيها**، (pdf)، فلسطين، ص 09..

[7]-تقرير التنمية البشرية 2010، **الثروة الحقيقية للأمم: مسارات إلى التنمية البشرية**، (pdf)، البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، ص13، الرابط على الإنترنيت:.www.hdr.undp.org

[8]- سيد عبد العزيز، **تحديات التنمبة البشرية**، الرابط على الانترنيت: http://www.startimes.com/f.aspx?t=25052811

●**الفقر**: يمثل أهم التحديات التي ستواجه مسيرة التنمية البشرية في العالم النامي في القرن القادم، حيث تشير الإحصاءات إلى أن نصف سكان العالم فقراء ومنهم نحو 1.3 مليار إنسان يعيشون تحت خط الفقر. ومع اتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء من ناحية، وتراجع مؤشرات المساعدات والمعونات الموجهة للدول النامية، سوف يترتب عليه عدم قدرة تلك البلدان مستقبلاً على مجرد توفير الحدود الدنيا لمعيشة شعوبها .

●**الأمية**: وما تشكله من خطر داهم على شعوب الدول النامية، فمع قصور الموارد وترتيب الأولويات على أساس توفير الاحتياجات الأساسية أولاً من مأكل ومشرب وملبس، فإن الموارد المتبقية والتي من المفترض أن يوجه جزء منها إلى التعليم تكاد تكون معدومة بالنسبة لاحتياجاتها الفعلية، هذا فضلاً عن تخلف نظم التعليم القائمة بتلك البلدان عن مسايرة المهارات اللازمة لاحتياجات الاقتصاد العالمي المتغير. ومن الطريف أن تجد شعار محو الأمية سائدًا في الدول النامية في حين ترفع الولايات المتحدة الأمريكية مثلا شعار التعليم العالي للجميع.

● **التلوث البيئي**: يشير مصطلح التلوث pollution إلى: "تغيير يطرأ على الأنساق الإيكولوجية بحيث يضعف من قدرتها على أداء دورها بشكل طبيعي. وغالبا ما يحدث من خلال أنشطة الإنسان، إلا أنه في بعض الأحيان قد يكون هناك تلوث ولا دخل للإنسان في حدوثه مثل الغبار والغازات المتصاعدة من البراكين".[9]

إن التلوث هو العامل الرئيسي الذي يهدد صحة شعوب البلدان النامية، حيث ارتبطت النهضة الصناعية للعالم المتقدم بتصدير التلوث إلى البلدان النامية، هذا بالإضافة إلى افتقار الدول النامية لمفهوم الأمن البيئي الذي يتمثل في توفير أساليب الحياة النظيفة الخالية من الأضرار والتلوث. هذا فضلاً عن عمليات إعادة التوطين للتكنولوجيا الملوثة للبيئة التي تقوم بها الدول المتقدمة والشركات متعددة الجنسية ولم تجد وطنًا لها أفضل من البلدان النامية، وذلك بعد إدراكها أن هذه الأنماط التكنولوجية تضر بصحة مواطنيها .

"هذه هي الرسالة الرئيسية لتقرير التنمية البشرية لعام2008/2007 : محاربة تغير المناخ التضامن الإنساني في عالم منقسم: لا يُمكن تجنب المخاطر الكارثية للأجيال المقبلة ما لم يبدأ المجتمع الدولي في العمل الآن .فارتفاع الطلب على زيادة الطاقة في البلدان الآخذة في النمو، حيث لا يزال كثير من الناس لا يحصلون على الكهرباء، يمكن مواجهته بينما نعمل على خفض إجمالي انبعاثات ثاني أكسيد الكربون .كما أن الاستعانة بالتقنية الأكثر كفاءة في استخدام الطاقة والقائمة بالفعل في البلدان المتقدمة بحاجة إلى أن تتوسع في البلدان الآخذة في النمو، في الوقت الذي نبتكر فيه الجيل المقبل من التقنية الأكثر كفاءة، ونمكّن البلدان الآخذة في النمو من التقدم بخطوات واسعة نحو هذه الحلول الأفضل .وفي الوقت ذاته، فإن استهلاك الطاقة في البلدان المتقدمة بحاجة إلى الترشيد .وتشتمل خيارات السياسات التي تهدف إلى تشجيع التحول إلى مزيج من الطاقة ذات معدلات ثاني أكسيد الكربون المنخفضة، على حوافز قائمة على أساس السوق، ومعايير جديدة للانبعاث والبحث لاستحداث التقنية جديدة وتعاون دولي أفضل".[10]

---

[9] – حفظي إحسان، مرجع سابق، ص 219.

[10] – تقرير التنمية البشرية 2009، **التغلب على الحواجز: قابلية التنقل البشري والتنمية**، (pdf)، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، www.hdr.undp.org.

●شروط التجارة العالمية:

غير المتكافئة وأثرها على مستقبل اقتصاديات البلدان النامية، حيث تؤدى الشروط المجحفة وتدابير الحماية التي تطبقها دول الشمال إلى تكبيد الدول الفقيرة لخسائر قدرتها أحد المنظمات الأمريكية غير الحكومية تُدعى " أوكسفام انترناشيونال " بمبلغ 700 مليار دولار تقريبا في العام؛ أي ما يعادل 14 مرة ضعف مما تتلقاه تلك الدول من مساعدات مخصصة للتنمية!! من جانب آخر فقد أثبت فشل مفاوضات "سياتل" إلى تناقضات العولمة، وعدم التوازن بين مصالح البلدان المتقدمة والنامية، وهو ما عبر عنه شعار المتظاهرين في "سياتل" والذي تمثل في "لا نريد تجارة حرة بل نريد تجارة عادلة ."

●أعباء التقدم التكنولوجي:

إن التقدم التكنولوجي المعاصر في المعلومات والاتصالات وأساليب الإنتاج يضع تحديًا وأعباء ثقيلة على كاهل الاقتصاد للبلدان النامية، حيث جعل رأس المال والتكنولوجيا وليس العمل وحده عوامل الإنتاج الرئيسية المحركة داخل الاقتصاد العالمي؛ مما يخلق تحديات إضافية لتنمية الموارد البشرية واستخدامها، وإلا ستكون النتيجة الحتمية تفاقم معدلات البطالة، حيث إن تخلف المهارات البشرية عن التعامل مع التكنولوجيا الحديثة يولد نوعًا من البطالة يعرف بالبطالة الاحتكاكية أو الفنية. فعلى سبيل المثال: إذا استحدث مصنع نمطًا إنتاجيًا حديثًا باستيراد بعض الماكينات المتطورة، فإن عدم قدرة القوى البشرية القائمة على التعامل مع ذلك النمط الجديد سوف يصحبه استغناء عن العمالة غير المتوائمة. في النهاية تبقى حقيقة أنه مع مضي إعصار العولمة قدمًا وما يحمله في طياته من إرساء معيار البقاء للأصلح، الأمر الذي قد يتنافى في كثير من الأحيان مع المعايير الإنسانية التي يسعى مفهوم التنمية البشرية إلى تحقيقه. لذا فإنه يتطلب من الدول النامية أن تصحو من غفوتها واعتقادها بأن محاكاتها للمظاهر المادية لحياة أهل الغرب من الكوكاكولا إلى المحمول يعنى أنها تعيش حياة بشرية ناعمة!! ولكن عليها أن تؤمن بأن إحداث أي تقدم اقتصادي أو اجتماعي مشروط بقدرتها على خلق إرادة وطنية واعية وقادرة على مواجهة التحديات التي يفرضها النظام العالمي الجديد (العولمة). فقدرة البلدان النامية على إثبات وجودها مستقبلاً مرتهن بقدرة أجيالها على التعايش مع التقدم ومحاكاته بفاعلية لا بمظهرية، وهذا لن يكون إلا باعتبارها مشاركة في صنع التقدم وليس مجرد متلقية لثماره.

4– ضرورة بناء الإنسان الفعال للقيام عملية التغيير:

يرى سلطان بلغيث أن مجرد الاكتفاء باستيراد أشكال التطور ومظاهر التحديث، لا تجعل من مجتمع ما متقدما، بل المسألة أعمق من ذلك بكثير، ولعل مبدأها تحريك سواكن المجتمع، وتهيئته نفسيا، واستئصال ما يكبله من قيود تعيق حركته باتجاه تفعيل دوره في إنضاج فعل النهضة، لأن التحديث الذي يتجاوز الانشغال بالمظاهر باتجاه التركيز على المضامين، هو صيرورة تاريخية اجتماعية، تلامس بالدرجة الأولى البنى الأساسية والجوهرية في العملية الاجتماعية بأسرها، فأسس التحديث المجتمعي لا تستورد من الخارج الثقافي والحضاري، وإنما تنبثق انبثاقا من الذات والواقع المجتمعي.

ذلك أن التنمية في فلسفتها العامة لا تعدو أن تكون قضية ثقافية، ولا يمكن بحال اختزالها في زيادة عدد المصانع، أو الآلات، أو وفرة الإنتاج، وزيادة الاستهلاك، وإنما هي قبل هذا وذاك (بناء للإنسان، وتحرير له، وتطوير لكفاءاته،

وإطلاق لقدراته، كما أنها اكتشاف لموارد المجتمع، وطاقاته المدخرة، وحسن توظيفيها، وتسخيرها، وادخارها، في ضوء استراتيجية، ورؤية علمية للمستقبل، أو لعـــــــالم الغد.

وفي خضم كل هذه التفاعلات يظل الإنسان هو وقود التنمية، وغايتها في الوقت ذاته، ومشيدا للعمران البشري، ونتيجة للقفز على الإنسان كعنصر محوري في معادلة التنمية المنشودة، ظل مشروع التنمية والنهوض باهتا تطغى عليه المظاهر ويعوزه الولوج إلى جوهر المسألة لأنه تم في نطاق أشياء الإنسان، وأدواته الاستهلاكية، على حساب الإنسان نفسه، والارتقاء به، كهدف نهائي للتنمية، ووسيلة فاعلة فيها. إن المهمة الرئيسية بالنسبة للنهضة في العالم العربي هي الرفع من كفاءة الإطار البشري باعتباره المدير والقائد لعملية التنمية والفاعل الرئيس فيها.

ولأن التنمية البشرية لا تتم إلا بالإنسان ومن أجله، فلا بد أن تنصب الجهود صوب تحقيق ثلاثية التنمية:

-بناء القدرة البشرية وتطويرها.

-الاستخدام الاجتماعي الأمثل لهذه القدرة، رأس المال الاجتماعي.

-دعم الدفع الذاتي للانتماء السياسي والقومي أو دعم مشاركة الإنسان في اتخاذ القرار وتنمية مجتمعه

5- حتمية التعليم لبناء الإنسان الفعال القادر على التغيير الحضاري:

إن التعليم في كل أمة هو الإطار الذي يسهم في تطوير قدرات المجتمع العقلية والفكرية، ويهيئ الإنسان للنهوض بأعباء التنمية والتغيير الحضاري، والاستثمار الرشيد للموارد المتاحة في تنفيذ البرامج والخطط التنموية وعلى هذا فإن مشاريع التعليم والتثقيف الاجتماعي، لا تعد مشاريع استهلاكية، بل هي من صميم العمليات الإنتاجية، لأنها تتجه لبناء الإنسان وهو الرأسمال الحقيقي لأي مجتمع.

إن الهدف الرئيسي من عمليات التنمية وكذا التغيير الحضاري هو الإنسان، وعلى ذلك فإن التعليم والتدريب من الوسائل الفعالة، التي لا غنى عنها إذا ما أريد للتنمية أن تحقق أهدافها، ويكون الإنسان قادرا على استيعاب إنجازات التنمية. ولعل معركة النهوض التنموي تحتاج إلى إنسان مزود بطاقة وفيرة من العلم والمعرفة، حتى تكون له القدرة على تحمل تبعات هذه النهضة بكل ما تقتضيه من تحديات، فلم يعد امتلاك الثروات، وتكديس المعدات هو المؤشر الوحيد المقبول لتصنيف الدول عالميا على سلم التطور والرقي، بل باتت القدرات العلمية ومهارات التحكم في أحدث مخرجات العلم هي الرهان الذي يحكم السباق الدائر بين الدول على النطاق العالمي. لأن المعرفة باتت في زمننا هذا تشكل السمة البارزة للعصر الكوني الراهن، إنها هويته الأساسية ولا يمكن تصوره بمعزل عنها، استطاع بها اكتساب دلالات وتحولات كثيرة لها انعكاساتها على كل مجالات الحياة المختلفة، لما لها من علاقة عضوية بالتنمية الإنسانية، إذ أنها أحد المكتسبات الأساسية للبشر، يتم بها بناء قدراتهم، وعظيم رخائهم، ولكونها أيضا عنصرا أساسيا من عناصر الإنتاج، ومحددا أساسيا للإنتاجية، تتبدل بفعلها مصادر المزايا النسبية التقليدية، من كثافة نسبية في الموارد، إلى كثافة نسبية في المهارات والمعرفة الفنية والابتكارية والاتقان والتطوير.[11]

---

[11]- سلطان بلغيث، **مرتكزات النهوض التنموي في العالم العربي**
http://www.annabaa.org/nbahome/nba85/016.htm

خلاصة:

نستخلص مما سبق أن التحديات التي تواجه التغيير الحضاري، هي – من منظور التنمية البشرية – هي تحديات يمكن مواجهتها إذا ما تم اعتماد المنهج العلمي في عملية التغيير، بالإضافة إلى الاهتمام بتنمية القدرات والمهارات الفكرية والعلمية والعملية الإنسان، باعتباره المحور العامل الأساسي في التنمية والتغيير، وتوفير الشروط الاجتماعية والثقافية لذلك.

إن التغيير الحضاري ضرورة حتمية يمليها الواقع الاجتماعي، من أجل مواجهة الزحف الكبير للعولمة وما تحمله معها من آثار سلبية على مقومات المجتمعات.

لذلك فالتنمية البشرية هي إحدى الآليات الأساسية لموجهة جميع التحديات التي تعترض التغيير الحضاري الهادف الذي يبقي على مقومات المجتمع والحضارة، ويساهم في الرقي والتقدم الحضاري.